

بقلم: د. حامد فضل الله / برلين

الشيخ والباب

في يوم
الشيخ الأسيب الباب
غنين
بيده يفسح الطريق قائلاً بأدب جم : تفضل! دخلت ثم تبعني وصاح وقد تملكه الغضب في تلك
بسخرية: !
أجبتة: قلتها
: ، لم أسمعها لكنني أصدقك.

شاركت في ندوة حول قضية الاندماج ومشاكل الأجانب في ألمانيا. وتعرضت في
قيادي الأحزاب السياسية الذين يستغلون ورقة الأجانب لكسب الأصوات في الانتخابات والتعرض لقضايا
انصرافيه للتلميذة أو صارفين عن القضايا الأساسية
مثل الأزمة الاقتصادية وال وطرح الحلول لها بما فيها قضية الاندماج. ليا
وكنت بين الحين والآن لس في المقدمة تثرثر مع جارتها و
بين يديها وقلما كانت تتابع الحوار. وفجة وقفت ودون أن تطلب الكلمة وقالت بانفعال ومشيرة وهي
:

- لماذا لا تذهب الى

سألته بهدوء:

كمواطن لماذا لا أبقى هنا؟

حمر وجهها وانعقد لسانها

حتى أركان المقهى العتيق بأبوابه الزجاجية العديدة التي تطل على كلية الفنون

الجميلة في برلين. وتزين جدرانه صور الأدباء والشعراء والفنانين ونجوم السينما. وحيداً

... ترفل في خطوات متأنية . جليسا

يحمل على كاهله آلامه .هـ

..

وأنا هرمٌ

تبحثين عن الحب، لكنني

...

"

غثيان

جاء الى برلين شاباً يافعاً جميل البنية والصورة وأكمل دراسته الجامعية .لم يشارك مع أبناء وطنه في عمل سياسي، رغم أن بلده يحكمها نظام دكتاتوري غاشم. ولم ينضم
العديدة. على الألمان شعباً وحكومة ويصفهما بالعنصرية وكره الأجانب فهو
الشاعر الكبير والكاتب الرصين لم يجد المركز الذي يستحقه، تاذاً جامعياً أو خبيراً ثقافياً كما يتخيل
أو يتوهم. لم يرفع طوية من الأرض وهو الآن على مشارف الخمسين ويقبض راتبه الشهري من قسم
المساعدات الاجتماعية دون أن يرمش له جفن. يقترض المال ولا يرده و يغتاب الغير ويتحرش
بزوجات أصدقائه. التقيت به لأحذره انفض الناس من حوله ومحاولة ليتصالح مع نفسه .
مرت بنا فتاة في سن أولادنا. تطلع اليها وقال بلا استحياء: ما أجمل هذا المكان لصيد الحسان. تركته
وحيداً قبل أن أصاب بالغثيان .

ظهر فجدة في الساحة الألمانية. صورته الصحافة والمرئية. يغفل أو يخلط عمداً الحقائق
التاريخية. يطلق الفتاوى ويستشهد بالآيات القرآنية وهو الجاهل بالقر الفقهية. أصدر رواية
يتيمة قالو نها عالمية. العلمانية وصار نجماً تلفزيونياً. انفضحت علاقاته المالية. ووصف الاسلام
بالفاشية و الحماية البوليسية .

شويعر

في أمسية صيفية في القاعة الأنيقة تزينها اللوحات التشكيلية الكبير يقدم ديوانه الجديد و لحظ وهو يواصل كيف تنفج شفاه البعض ببسمة لها مغزاها وكيف تلتفت الرؤوس يميناً أو شمالاً إشارة على : لو كان هذا
يمسك بخناقى.
وتذكرت في هذه الحظة شعر صلاح عبدالصبور وصلاح أحمد إبراهيم
فهدأت اعصابى وأتقذنى قبل أن ينفجر شريان فى دماغى.

جمهورية لمانيا الديمقراطية () فى نهاية الخمسينيات من القرن العشرين الحرب الباردة والصراع بين الوحيد وسيطر الأيدلوجى فى زيارتى النادرة والخاطفة الى برلين الغربية ماراً عن طريق القطاع الأمريكى، كان يعترينى الخوف وأنا على أرض النازيين والإمبرياليين. أعود الى برلين الشرقية وأشاهد هناك البوليس والطمأنينة. برلين الغربية صدقائى القدامى فى برلين الشرقية، كان يصيبني الرعب للحضور الكثيف للبوليس .

رغبة دفينة

عيادتي وزوجته الطبيبة حضرا منذ أيام قليلة من وطنهما . المظهر والملبس يدلان . الكشف، أكدت لهما القادمة لمتابعة نمو الجنين وحددت المعاينة لهما مراحل التالية بعد أربعة اسابيع .
ودهشت عندما عادا بعد أسبوع نها تريد كشفاً دقيقاً . قلت لها أن الكشف عن طريق نقتب أو خزى الأمنىونى للحصول على عينة من السائل الأمنىونى من أجل التشخيص لا ينطبق حالتها. وشرحت أنه رغم أن هذا الكشف يتطلب عملية صغيرة الا أنها ليست خالية من المضاعفات مما يهدد الحمل . ولكنها واصلت وبإصرار على طلبها أسرتها مشوهين. لها تشويه ولكنها واصلت حديثها بأنها تعيش حالة نفسية قاسية وخاصة أنها الآن بعيدة عن أهلها.

ظاهر الوجه واليد أن تخفيه. كان زوجها يتابع حديثنا .
نفسى بالعامل النفسى وتم الكشف وحضرا بعد أسبوع واطلعتهما على نتائج التحاليل الدقيقة وبشرتهما
بأن المولودة القادمة ستكون معافاة وسليمة تماماً . غادرا العيادة !
تم الاجهاض في هولندا في المستشفى الخاص والمشهور ببورصة الاجهاض.

في احدى أيام الأحد صوب البحيرة التي لا تبعد كثيراً عن
الشمس مشرقة والسماء صافية. والربيع وضع بصماته علي الطبيعة.
وهبوطاً بين الأشجار العالية والكثيفة واشاهد الأطفال يترشقون بمياه البحيرة ويتضحكون
ستلقون على النجيلة الخضراء يراقبون أطفالهم بعبور، شاب يحتضن صديقته بحميمية وشيخ
يداعب كلبه. عند ممر جانبي من الحديقة جلست على كنبه منزوية
وجهها داخل كتاب .

حييتها تأدبا وبصوت خفيض حتى لا استغراقها. أزاحت الكتاب عن وجهها وحيثي
عريضة تكشف عن وجه ربعيني صبوح حتى لا ينقطع حبل الوصال :
- ماذا تقرئين ؟

الى وجهي . فقرأت Faust " رائعة جوته "
- قرأتها بالعربية، طالباً في المرحلة الثانوية مترجمة عن الفرنسية.
- أعود اليها وأندesh كيف أحياناً يبرز المضمرة وينجلي الغامض و
كان مغلقاً وعصياً من قبل .

- قلت: لم أفهمها في ذلك الحين، ربما لقلة التجربة وصعوبة الترجمة ،فقد جاءت من لغة ثانية.
- لتها: ماذا تعملين ؟

- التاريخ في الجامعة البرلينية .
: طبيبا في برلين. تعالجن التاريخ و
- كلانا مرتبط بالتاريخ .
:
- تعليم لغة ثانية والاطلاع على ثقافة أخرى جيد ومفيد .
- الذي يدور الآن بلا عقلانية الثقافة الألمانية

- ليس هو شعور قومي طبيعي ؟

- : أن مقدره البشر علي الحياة المشتركة مع اختلاف الثقافات والهويات واللغات والولاءات لايزال يثير الاستغراب في المانيا، بالرغم من أن بلدكم أصبح بعد ممانعة طويلة بلداً للمهاجرين . وأردفتُ على الاعتزاز بلغة الأم ولكن التعصب الشوفيني يقود الى تأجيج المشاعر القومية وتعقيد عملية

- قالت: بنبرة لا تخلو من تبرم مغيرة مسار الحديث: شرقكم الأوسط يموج بالاضطرابات والفوضى ثورات ربيعكم العربي .

- : بالهدم والحيرة ، قبل أن يستقيم الطريق!
يتساءل فيلسوفكم الكبير Ernst Bloch كتابه Das Prinzip Hoffnung . بعد أن شاهد العسف والبطش والدمار الذي حل بألمانيا أثناء الحكم النازي متأملاً حال الوطن وأهله في ذلك الزمن العصيب :

" من أين جيئنا لى أين نذهب ينتظرنا " :
الذي صاغ فيه الفيلسوف أمله في عالم يتخطى فيه الانسان اغترابه من المجتمع والطبيعة!
نحن نبحت في تاريخنا ونتخطاه و يقول شاعرنا العظيم هينرش هاينه Heinrich Heine:

هو حصيلة الماضي.
يجب علينا أن نبحت

ولكنكم تبجلون تاريخكم وتنقصكم النظرة النقدية.

- قلت: هذا ليس صحيحاً، على تخطي صعابنا الحالية رغم المعوقات والتدخلات الخارجية ...

هكذا : دائما الى الحل السهل "نظرية المؤامرة " لتريحوا أنفسكم بدلا .

- : حديث عن نظرية المؤامرة، فيكفي فقط أن تنظري ما يدور الآن في العراق وليبيا وسوريا. وثانياً اننا نقوم ببحت تاريخنا ونقده ولعلك
تاريخ الفكر الإسلامي في جامعة السوربون بباريس كان أستاذاً زائراً في معهد الدراسات العليا برلين لمدة عام.

- : هذا يذكرني بكتاب الفيلسوف الألماني ايمانويل كانت Immanuel Kant .
- : اليه فالكتاب لا يتعرض فحسب لنقد العقل الديني
() وانما أيضاً لنقد علم الاستشراق بايجابياته وسلبياته. ونحن في هذه الظروف الحرجة التي

تمر بها الثورات العربية، يحدونا ويبقى لنا أيضاً الأمل كما يقول بلوخ ومضيفاً
هاينه، وجسر بين الشرق والغرب .

تفرع الحديث وتشعب وكان ثرياً . لها
الألمانية لا يزال متواضعاً مقارنة بترجمة أدب أمريكا اللاتينية على سبيل المثال .
ساعتها وقد بدأ وهج الشمس في الانحسار، وصاحت يا الهي .
سرنا جنباً الى جنب مع الاحتفاظ بمسافة ولكن خطواتنا كانت متساوية.
- : ذن ما هو الاختلاف بيننا ؟

- : السنين موازية بعضها لبعض، واحياناً تتشابه، طالما
والبشر يتقاسمون طبيعة انسانية واحدة. المساواة شرط ضروري للتفاهم

- : عندما يرتفع الفكر عن اليومي المبتذل ، يجد نفسه في مواجهة
نها همومنا جميعاً .

- أمنت على كلامها وأضفت: صراع الأفكار والحوار العقلاني بين الآراء المتباينة في حد ذاته عمل
خلاق ويدفع الى الاحترام المتبادل . فالأسئلة المصاغة سواء كانت فردية أو جماعية تجد
في الغالب اجاباتها في الحوار مع خرين .
وصوبت عينيها على امتداد البصر، تستوثق من الطريق.
ومختنمة بقول جوته:

" لو لم تكن العين بصيرة ، ما كنا لنستطيع أن نرى سطوع الشمس "

دفعت لي بكتابها وقالت لعلك تقرأها في لغتها الأصلية . وناولتها في نفس اللحظة وبشعور دافق كتابي
موسم الهجرة الى الشمال لكاتبنا المبدع الطيب صالح.
الى الألمانية نف جميعها وليس هناك أم
اليمين اليسار .
عمال الطيب المترجمة
يبا .